

مفهوم النص في النقد العربي المعاصر

د. فريد أمعشوشو
أستاذ التعليم العالي - المغرب.

الملخص:

تروم هذه الورقة البحثية رصد المجهود النقدي العربي المعاصر الذي بُذل، منذ عقود، من أجل ضبط مفهوم "النص"، وتحديد ماهيته ومقوماته الجوهرية، والإلمام بأبرز أواليات إنتاجه وتلقيه؛ وذلك بالرجوع إلى جملة من الأبحاث المنجزة في هذا الصدد لثلة من كبار نقادنا المعاصرين؛ من مثل: محمد مفتاح، وعبد الفتاح كيليطو، وعبد السلام المسدي، ومنذر عياشي، ومحمد خطايي. على أن المداخلة لن تقف عند حدود الرصد المشار إليه، بل ستقرأ ذلك المجهود البحثي، محاولةً نقد ما تراه في حاجة إلى انتقاد منه، ومقترحةً ما تراه ضروريً الحضور في تعريف النص، وفي بناء صرحه العام، مع إثارة جملة من القضايا والإشكالات ذات الصلة بالموضوع، والوقوف على المرجعية المنطلق منها في ذلك كله، وهي مرجعية غربية كما لا يخفى، سواء وقع التصريح بها أو لم يقع...

تسعى هذه الورقة البحثية إلى تسليط ضياء كاشفة على مفهوم النص "Texte" في بعض معاجنا القطاعية الحديثة المعروفة في المجال الأدبي، ولدى بعض نقادنا المغاربة والمشاركة ممن كان لهم إسهامٌ بارز في الدراسة النصية تنظيراً وتطبيقاً، وإلى مناقشة جملة من القضايا ذات الصلة بالموضوع، دون إغفال الإشارة إلى مرجعياتها وامتداداتها ونحو ذلك...

لقد قدّم مجدي وهبه للنص، في معجمه، ثلاثة معانٍ للنص؛ أبرزها الأول، وفُحواه أن مفهوم النص يشير إلى "الكلمات المطبوعة أو المخطوطة التي يتألف منها الأثر الأدبي".¹ وقرأ في المعجم الذي أعده سعيد علوش حول المصطلحات الأدبية المعاصرة ما يأتي بشأن مفردة "النص":

"1- مصطلح يحل محلّ "العمل الأدبي". وفي الحين الذي نرفض فيه مفهوم "الإبداع الفردي / الدلالة / تمثيلية الواقع" يصبح "النص" أثراً للكتابة.

2- ويستهدف تعريف النص إنكار مفهوم العمل المكتوب كـ "حقيقة تعبيرية". وهو يعمل على "اللاتعبيرية الراديكالية"، و"اللعب متعدد الخطوط" لـ "كتابة النصية".

3- ويُستخلص تعريف النص من ميثية التمثيلية، إذ لا يفكر فيه إلا من خلال أدبيته وفضاءه.

4- ويعرّف دريدا النص كرقم بدون حقيقة، أو كظام أرقام تبين عليه قيمة الحقيقة.

5- وتُقدّم كريستينا تعريف "ظاهرة النص"، في تعارض مع "توليد النص"، للإشارة إلى النص في أدبيته، ولا تُقرأ "ظاهرة النص" المطبوع دون إلمام بمكوّناته التالية:

أ- المقولات اللسانية.

ب- طوبولوجية الفعل الدال، بحيث تصبح الدلالة هي هذا التوليد.

6- و"النص المحدّد"، عند جماعة "تيل كيل"، قوة حية، نظرية شكلية للغة.

7- و"التنصيص" طريقة تصبح بها الكتابة نصّاً.²

ويعرّف معجم اصطلاحات عربي آخر "النص" بأنه "وحدة كبرى شاملة تتكون من أجزاء مختلفة تقع على مستوى أفقي من الناحية النحوية، وعلى مستوى عمودي من الناحية الدلالية... والمقصود بالمستوى الأول أن النص يتكون من وحدات نصية صغرى تربط بينها علاقات نحوية، أما الثاني فيتكوّن من تصوّرات كلية تربط بينها علاقات التماسك الدلالية المنطقية".³

إن الناقد المغربي محمد مفتاح يعد أحد أبرز الباحثين العرب الذين تعمّقوا في دراسة مصطلح (النص)، وفي تناول الظاهرة النصية، وقد قدم اجتهادات في هذا الإطار تحظى بالكثير من التقدير في الأوساط النقدية والأدبية عموماً. فبعد تقصّيه وتعمّقه في بحث دلالة المصطلح المتقدم في الثقافتين اللاتينية والإسلامية، انتهى إلى أن معانيه، في الثقافة الأولى، لا تكاد تخرج عن اثنين، هما: - النص نسيج.

- النص وثاق.

وفي الثانية تكاد تكون مختزلة في ثلاثة كبرى، هي:

- النص منصّة.

- النص كتاب.

- النص كلام. والكلام ينصرف مفهومه إلى معاني "النسيج"، و"الصياغة"، و"الجسد"، و"الماء"⁴.

وعدّ الرجل، في أحد كتبه الأولى، النصّ مدونة كلامية، وحدثاً تواصلياً تفاعلياً مغلقاً وتوالدياً، لا تتحقق نصّيته إلا بتوافر سبعة معايير، هي: الربط، والتناسك، والقصدية، والمقبولية، والإخبارية، والمؤقتية، والتناص⁵. وهو في ذلك يبدو شديد التأثير - وإن لم يقل مكرراً - بروبرت دي بوجراند الذي اقترح جملة معايير "لجعل النصية أساساً مشروعاً لإيجاد النصوص واستعمالها، هي:

- السبك (Cohesion).

- الالتحام (Coherence).

- القصد (Intentionality).

- القبول (Acceptability).

- رعاية المواقف (Situationality).

- التناص (Intertextuality).

- الإعلامية (Informativity)⁶.

وتساءل، في حوار أجري معه منذ ما ينيف عن العقدين، عن ماهية النص، فأجاب بأن "أهم ضابط له هو مفهوم الانسجام، وهو يضم عدة عناصر... ويمكن أن نتحدث عن مفهوم الاتساق ومفهوم التنضيد. فمفهوم التنضيد هو المرحلة الأولى؛ أي العلاقة بين الجمل: واو العطف، فاء السببية، إلى غير ذلك... ونقصد بمفهوم الاتساق العلاقة المعنوية بين الجمل: علاقة عموم بخصوص، أو علاقة تضمن. ومفهوم الانسجام هو أعم؛ انسجام النص مع العالم الواقعي... فالنص عبارة عن متتالية من الجمل بينها علاقة من العلاقات، ومتى انعدمت هذه العلاقة لا يبقى هناك نص"⁷.

يبدو لنا واضحاً مدى تشديد الناقد على قضية التماسك النصي بوصفه أحد أهم شروط تحقق النص والنصية، ونلاحظ هذا الأمر لدى دارسين آخرين كثر؛ منهم نور الدين السّد الذي رفض أن يكون النص مجرد "مجموعة جمل فقط". ورأى أن "النصية تميز النص عما ليس نصّاً، فالنصية تحقق للنص وحدته الشاملة. ولكي تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية... ولتوضيح ذلك نضرب المثال الآتي: (اقطف قليلاً من الزهور، ضَعْها في مزهرية قاعة الاستقبال). غني عن البيان أن الضمير "ها" في الجملة الثانية يحيل قلباً إلى "الزهور" في الجملة الأولى. وما جعل الجملتين متسقيتين هو وظيفة الإحالة القبلية للضمير "ها". وبناءً على ذلك، فإن الجملتين تشكلان نصّاً⁸ ومنهم الأزهر الزناد الذي حدد النص بأنه "نسيج من الكلمات يترابط بعضها ببعض، هذه الخيوط تجمع عناصره المختلفة والمتباعدة في كل واحد، هو ما نطلق عليه مصطلح "نص"⁹. وكان محمد خطاي قد أتحفنا بدراسة نفيسة في هذا المجال، مما جاء فيها أن "النص وحدة دلالية، وليست الجمل إلا الوسيلة التي يتحقق بها النص. أضف إلى هذا أن كل نص يتوفر على خاصية كونه نصاً يمكن أن يطلق عليها "النصية"، وهذا ما يميزه عما ليس نصاً. فلكي تكون لأي نص نصية ينبغي أن يعتمد على مجموعة من الوسائل اللغوية التي تخلق النصية، بحيث تساهم هذه الوسيلة في وحدته الشاملة"¹⁰.

والثابت أن هؤلاء الدارسين العرب وغيرهم، ممن ركّزوا في تعريفهم مفهوم النص على جوانب الاتساق والانسجام والتناسك والتنضيد، قد تأثروا تأثيراً مباشراً أو غير مباشر بالأبحاث الأنجلوساكسونية، في موضوع الاتساق والانسجام النصيين، التي ازدهرت في النقد الغربي خلال العقود الأخيرة.

وانطلق الناقد المغربي عبد الفتاح كيليطو في تحديده كلمة (النص)، التي عدّها "سخرية"¹¹ كالآدب تماماً، من التمييز بينه وبين اللّانص (Anti-texte). فالنص غير متحقّق إلا داخل ثقافة معينة هي التي تسمّه بميسم النصية، وتعرّف له بتلك الصفة، وترفعه من لُغوِيته لتضفي عليه المدلول الثقافي. وبمفهوم المخالفة، فكل كلام لم تحكم عليه الثقافة التي ينتسب إليها بالنصية، يظل مجرد كلام ليس إلا؛ أي

يلزم حانة (اللائص). وقد أكد الشكلافي الروسي يوري لوتمان (J. Lotman)، في أبحاثه، على خاصية النص الثقافية؛ كما في كتابه المعروف (بنية النص الفني)، وفي عددٍ من دراساته المنشورة في صحفٍ شهيرة؛ كمجلة (سيميوطيقا) (Semiotica)، وشدد على العلاقة الوثيقة التي تربط النص بالثقافة، وعُدَّ الأدب مجموعةً من النصوص التي أقرت شرعيتها ثقافة معينة. وذكر أن ما هو نص في ثقافة قد لا يكون كذلك في ثقافة أخرى، بل إن النص الواحد، داخل ثقافة بعينها، قد يفقد النصية أو الشرعية في عصر ما، ويكتسبها في عصر آخر غير عصر إنتاجه، وأمام متلقين آخرين غير المتلقين الذين وُجِّه إليهم أول الأمر. ونقصد بالثقافة شقَّ الحضارة الروحي والمعنوي والفكري، في مقابل جانبها المادي والتطبيقي (المَدْنِيَّة)، ولعل أشهر تعريفاتها ذلك الذي قدّمه لها الأنثروبولوجي الإنجليزي إدوارد تايلور E. Taylor (1917-1832)، ونصّه أنّ "الثقافة هي ذلك الكلّ المعقد الذي ينطوي على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعُرف وغير ذلك من القدرات والمقومات التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع".¹²

ويتّصف النص بميزاتٍ أخرى؛ منها خضوعه لتنظيم داخلي فريدٍ محكم. وعلى هذا الأساس، فليس كلُّ كلام نصّاً. ومن هنا، أخرجت الثقافة الكلاسيكية (ألف ليلة وليلة) من زمرة النصوص؛ لأنها كان ينقصها ذلك التنظيم والنظام. ولا ينبغي أن يُفهم مما قلناه أن "اللائص ليس له تنظيم، إلا أنه تنظيم لغوي، ولا يُستشف منه - بخلاف النص - أي مدلول ثقافي".¹³

ولمّا كان للنص هذا المدلول، ويخضع لنظامٍ متميّز، فإنه يُخطى بعناية فائقة، ويخشى عليه من أن تطاله أيدي الضياع والإهمال. لذا، فإنه يقيّد ويُدوّن ويحفظ في كتب. وزيادةً على ذلك، يُحرص على تعليمه وتلقينه لطلاب المعرفة. وعليه، فالمقررات الدراسية لا تشمل - أو هذا ما يفترض فيها - سوى على الأقوال التي تعدّها الثقافة نصوصاً. وعلاوةً على ما سبق، فالنص، في نظر كيليطو، "يكون عادةً عسيراً أو غامضاً أو "غنياً"¹⁴، يحتاج إلى مَنْ يفسّره أو يؤوِّله أو يسبّر غَوْرَه. ويغدو هذا التفسير أو التأويل نفسه نصّاً يتطلب مفسراً أو مؤوِّلاً جديداً. وهذا الأخير يستحيل، هو الآخر، نصّاً يستلزم تفسيراً أو تأويلاً جديداً، وهلم جرّاً.

والفرق الأخير بين النص واللائص، حسب كيليطو، هو أن الأول يصدر عن مؤلفٍ ثقّة، معترفٍ بقيمته، يُنتجُ بكلامه. وهذا المؤلف هو الذي يمنح للنص قيمته، بحيث إن عبارة (نص بدون مؤلف) عبارة فيها مناقضة في الكلام. في الثقافة العربية الكلاسيكية قد يُنسب إلى عدة مؤلفين، إلا أن النسبة في حد ذاتها تبقى قارّة. فلهذا لم تصلنا، على العموم، نصوصٌ مجرّدة عن اسم مؤلّفيها.¹⁵ وحين يبرُغ نجمٌ مؤلف ويصير حُجّة في الساحة الأدبية والثقافية العامة، تتغيّر شخصيته تغيّراً يمسّ حتى اسمه، وكأنه بذلك يؤلّد من جديد. ولنا في تراثنا أمثلة كثيرة على هذا الصنف من المؤلفين؛ منهم أبو القاسم محمود بن عمر الذي تحوّل من مجرد قائل إلى مؤلف حُجّة، نتيجة لعدة عوامل، وأطلق عليه اسم جديد به يُعرف؛ هو الزمخشري (ت 538هـ).

وأورد كيليطو، في سياق تشريقه بين النص وصديده، خاصّةً أخرى تميز النص من اللائص، اقتبسها من ميشيل فوكو (M. Foucault)؛ وهي أن الكلام/ اللائص لا يُخصى، على حين أن النصوص نادرة¹⁶؛ لكونها تتطلب جملة شروط ومواصفات لتحقيقها، بخلاف اللائص. وقد سبق أن ألّمنا بعددٍ من هذه الصفات، على أنه نستطيع أن نُضيف إليها أخرى؛ مثل سمة الاختلاف (Difference) التي ألح عليها النقاد التفكيكيون، وجعلوها إحدى أهم خصوصيات النص، وعلى رأسهم الناقدة باربرا جونسون التي استندت إلى هذه الخاصية في تعريفها النصّ، وهي لا تريد بـ"الاختلاف" اختلاف النص عن غيره من النصوص فقط، بل اختلافه في ذاته أساساً، والذي نلمسه بالتكرار وإعادة القراءة. تقول: "إن اختلاف النص (عن غيره من النصوص) ليس هو المميّز له أو المحدّد لهويته الخاصة، ولكنّها طريقة النص في الاختلاف مع ذاته. وهذا الاختلاف لا يمكن الوصول إليه إلا من خلال فعل القراءة. إنها الطريقة التي تصبح بها الطاقة الدلالية للنص غير محدودة... من خلال عملية التكرار. وهي ليست إعادةً للشيء نفسه، بل لشيءٍ مختلفٍ. إن الاختلاف، بكلماتٍ أخرى، ليس هو ما يميّز نصّاً من آخر. إنه ليس الاختلاف بين كيّانين مستقلّين، ولكنه اختلاف في داخل النص ذاته".¹⁷

ويذهب بعضهم إلى أن الغرابة والدهشة أهمّ ما يميّز النص، ولا سيما الأدبي. يقول نور الدين صدوق: "لا أهمية للنص خارج غرابته... فالغرابة دعوة للتفاعل للمشاركة في النص، إذ عن طريق الدهشة يتحول المتلقي إلى عنصر فاعل في الرقعة الإبداعية. في النص... بالغرابة يصبح المتلقي عنصراً لا يخلقه المبدع، وإنما يخلقه النص... والغرابة تتولّد من العجيب في النص... واستشفاف الغرابة معنا تدوُّق النص"¹⁸. ويحدد حاتم الصكر للنص ستّ صفات عامة، هي:

1- النص بنية؛

2- مركبة العناصر؛

3- موحدة، بمعنى مُنصَّمة إلى بعضها؛

4- كلية، يتكامل بعضها مع بعض؛

5- متجانسة ومتسقة ضمن نظام توزيعي خاص، وتتكلل القراءة والتحليل بكشفه؛

6- ذات عمق دلالي تؤدي إليه المستويات المتعددة للبنية.¹⁹

وحّد الناقد التونسي عبد السلام المسدي النص بأنه "جهاز ينظمه تماسك لغوي خاص"²⁰، مركزاً على بنيته السطحية وعلى الروابط بين مكوناتها. ولما كان هذا التحديد أحادياً أغفل أطرافاً أخرى لها يدٌ في نسج خيوط بنية النص، فقد رأينا يُلور تعريفاً آخر له يأخذ في الحسبان الظاهرة النصية أخذاً شمولياً؛ إذ قال: "النص إذن تركيب وأداء وتقبل، أو هو ملفوظ وتلفظ واستقبال... هو فعل أو ظاهرة سيميائية تشمل علامة مادية ولغوية متعددة المعاني، إيجابية تتجاوز واجدية الدلالة (Monosémie) إلى تعدديتها (Polysémie)".²¹ إن النص، في منظور المسدي، بنية / علامة كبرى تحتزن علامات صغرى تتعالق فيما بينها وفق عدة روابط، وهي نتاج طبيعي لمنتج تتنازع عدة مؤثرات تتضافر لتشكيل ذاتيته. إن الأداء / الفعل / إنتاج النص لا يكون من فراغ، بل انطلاقاً من خلفيات ومرجعيات متعددة العناصر. فالنص الجديد، كما يقول تودوروف، "لا يُبنى بواسطة عناصر تنتمي بصورة حصريّة إلى "الأدب"، ولكن بالإحالة إلى مرجعيات خاصة؛ مثل الأسلوب والتقاليد الأدبية ونوع استعمال الكلمات والوسائل الشعرية".²² ولعل أبرز سمات هذا النص أنه تعددي الدلالة، و"لا يعني هذا أنه ينطوي على معانٍ عدة فحسب، وإنما أنه يحقق تعدد المعنى ذاته. إنه تعدّد لا يؤول إلى أية وحدة. ليس النصّ تواجداً لمعاني، وإنما هو مجاز وانتقال. بناءً على ذلك، فلا يمكن أن يخضع لتأويل، وحتى لو كان حُرّاً، وإنما لتفجير وتشتيت. ذلك أن تعددية النص لا تعود لالتباس محتوياته، وإنما لما يمكن أن نطلق عليه التعدد المتناغم للدلائل التي يتكوّن منها".²³ وهذا ما يجعل النص مفتوحاً على تعددية التفسيرات والقراءات والتأويلات. يقول جان إيف تاديه: "كل عمل أدبي حينما يكون له شكل مكتمل ومغلق في كمال هيأته المضبوطة بدقة، فإنه عمل مفتوح، لأنه - على الأقل - قابلٌ للتفسير بطرق مختلفة دون أن يؤثر ذلك على تفرّده غير القابل للاختزال".²⁴ ويحلّو لأنصار استراتيجية التلقي أن يؤكدوا أن النص يصير ملكاً لمن يتلقّاه، ويستقل عن أُنجه، بمجرد ما يصدر عنه. ذلك بأن "خروج النص من بين يدي مؤلفه يدخله مساراً دينامياً لإنتاج المعنى لا يسوغ اختزاله بالمعنى (الأصلي) الذي رأى إليه هذا المؤلف. إن كل نص يغدو، لدى قراءته، كياناً مستقلاً مفتوحاً على عملية تفاعلية مع المتلقين الذين يختلفون ثقافة ومكاناً وبعداً زمنياً عن التشكيلات المعنوية التي يتألف منها".²⁵

وفي هذا السياق نفسه، عدّ الناقد السوري منذر عياشي النصّ "مضغة لغوية"²⁶، والقارئ الفاعل الذي يخلقها من بعد خلق خلقاً آخر؛ متأثراً في ذلك بالاتجاهات النقدية الغربية التي عرّفها أوربا بعد مرحلة البنيوية والحداثة. وكان قد سبق للرجل نفسه أن حاول تحديد النص، وتبيين خصائصه الجوهرية. قال: "النص دائماً الإنتاج؛ لأنه مستحدث بشدة، ودائم التخلق؛ لأنه دائماً في شأنٍ ظهورياً وبيانياً، ومستمرّ في الصيرورة؛ لأنه متحرك، وقابل لكل زمان ومكان؛ لأن فاعليته متولّدة من ذاتيته النصية"²⁷. وبالنظر إلى طبيعة النص هذه، فقد أقرّ الناقد بصعوبة صوغ تعريف نهائي له؛ لأن من شأن ذلك أن "يلغي الصيرورة فيه، ويعطل في النهاية فاعليته النصية".²⁸ ويعرّف الناقد الجزائري حسين خري النص بأنه بناءٌ وتفكيكٌ معاً. يقول: "إن النص يُبدي تجلّين مختلفين في الوقت ذاته، فهو بناء وتفكيك. وعملية البناء تتمثل في صياغته لبنيته الخاصة وعالمه، وذلك من خلال أداة مشتركة، التي هي اللغة، تستلهم بنياتها ومنظوماتها من النموذج الثقافي في فترة زمنية معينة. والبناء لا يعني إعادة إنتاج السائد والمألوف والامتثال للمعايير اللغوية والشكلية التي تفرضها المؤسسة اللغوية أو المولدة Générique (المتعلقة بالجنس الأدبي)، بل إنه يُقيّم منها القليل؛ وذلك ليذكر بالنوع الأدبي، ويتجاوز الخصائص البنيوية الباقية ليؤسس جنسه الخاص. وهذا المفهوم تصبح عملية البناء فعلاً تصحيحياً Acte correctionnel للمتن الأدبي أو لمجموع نصوص الجنس النوعي في فترة تاريخية محددة.

أما العملية الثانية التي يقوم بها النص فهي التفكيك *Déconstruction*. ومن خلالها يقوم النص بتفكيك البنية النصية الموجودة ليشرح خصوصيته باعتبارها تنوعاً للبنية السابقة أو تجديداً لها. وبدون هذا النشاط فإن النص يتحول إلى نسخة مشوهة من النصوص الأخرى، ويدوب في كئنتها، فيعجز عن فرض حضوره.²⁹

بناءً على ما سبق، يمكننا القول إن النص كبنية لغوية محسوسة متأسكة ومنظمة، يتأسس صرّحاً على جملة من العناصر المتعلقة وفق شبكة من العلاقات، وتتدخل في إنتاجها أطراف عدة، وتنتج على كينونات أخرى أخذاً وعطاءً، وتتوحد، عادة، تحقيق غاية من الغايات.

ولا مناص من الإشارة، ها هنا، إلى أن ثمة جملة مفاهيم ومصطلحات يكثر دورها في دائرة النص بشكل يجعلها تلتبس أحياناً مع مفهومه، وتختلط بمدلوله؛ مما يدعونا إلى ضبطها جميعها، وتبيان الحدود بينها وبين النص. وأهمها (الخطاب) (Discours)، و(الملفوظ) (Enoncé)، و(العمل الأدبي)، و(المتن) (Corpus).

لقد أوما غريماص وكورتيس، في قاموسهما السيميوطيقي المشترك، إلى أن "مصطلح 'النص' يُتناول في الغالب بوصفه مرادفاً للخطاب، لاسيما في سياق التداخل المصطلحي الحاصل في اللغات الطبيعية التي لا تملك معادلاً لكلمة (خطاب) (الفرنسية أو الإنجليزية). وفي هذه الحالة، فإن السيميوطيقا النصية لا تختلف، في الأصل، عن السيميوطيقا الخطابية. ويمكن أن يطبق مصطلحا (النص) و(الخطاب)، دون تمييز، لتحديد المحور المركبي / الأفقي لسيميوطيقات غير لسانياتية / غير لفظية؛ كالطقوس أو الباليه اللتين يمكن عدّها نصّين كما يمكن عدّها خطابين".³⁰ وكان محمد عابد الجابري قد سوّى، أيضاً، بين هذين المصطلحين، ونظر إليهما بوصفهما مترادفين، فقال: "النص رسالة من الكاتب إلى القارئ، فهو خطاب... الخطاب باعتباره مقول الكاتب... بناء من الأفكار، يحمل وجهة نظر".³¹

ولكن جمهور علماء اللسان والمشتغلين بالحقل السيميائي ونقاد الأدب يميزون بين (النص) و(الخطاب) انطلاقاً من عدة زوايا. وقد عزّفه اللغوي التوزيقي زيلينغ هاريس، الذي يعد "أول لساني حاول توسيع حدود موضوع البحث اللساني بجفله يتعدى الجملة إلى الخطاب"³²، بأنه "ملفوظ طويل، أو هو متتالية من الجمل تكون مجموعة متعلقة يُمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيكية وبشكل يجعلنا نضل في مجال لساني محض"³³. وقدّم له مؤلفو (معجم اللسانيات) ثلاثة تعريفات؛ فهو "أولاً يطلق على اللغة في طور العمل، أو اللسان الذي تتكلّف بإنجازه ذات معينة، وهو هنا مرادف للكلام بتحديد دي سوسير. ويعني ثانياً وحدة توازي أو تفوق الجملة، وتتألف من متتالية لغوية تكون إرسالية ذات بداية ونهاية، وهو هنا مرادف للملفوظ. ويتجلى ثالثاً في استعمال الخطاب بمعنى الملفوظ الذي يتعدى الجملة منظوراً إليه من زاوية قواعد تسلسل متتاليات الجمل".³⁴

إن (الخطاب)، إذاً، يرادف (الملفوظ)، ويتميّز للمنطوق / الشفهي³⁵، بخلاف (النص) الذي يقترن، لدى كثيرين، بالمكتوب³⁶. يقول غريماص وكورتيس: "نعتبر إلى حد بعيد أن ملفوظاً، مع الانتباه إلى أن النص يتعارض مع الخطاب³⁷، انطلاقاً من مادة التعبير الكتابية أو الصوتية، يُستخدم بغية إبراز تجلّي القضية اللسانياتية. وفي نظر بعض علماء اللغة (ر. ياكسون)، فإن التعبير الشفوي - ومنه الخطاب - يمثل الحدث الأول، والكتابة لن تكون إلا مشتقاً أو ترجمة للتعبير الشفوي. ويرى آخرون (هلمسليف)، بالمقابل، أن الفكرة المتوارثة لا تثبت دائماً ولا تصحّ أطراداً، وأن الشكل السيميوطيقي قابل للتظهر والتجسّد المادي عبر مختلف صيغ التعبير".³⁸

وإذا كان معيار الكتابة شرطاً حاسماً في تحديد ماهية النص في نظر ريكور ومن أخذ برأيه، فإن هناك آخرين توسّعوا في مفهوم النص ليشمل المكتوب والشفوي وسائر الأنساق التواصلية. وعليه، فقد زعم بارط أن الإيقاع الموسيقي نص، واللوحه الزبئية نص، والشريط السينمائي نص، والمشهد المسرحي نص³⁹. بل إن بعض المنظرين عدّوا العالم كلّ نصاً⁴⁰. ولكنّ الشائع بين الدارسين أن النص ينصرف مفهومه إلى المكتوب الناتج عن فعل الكتابة، وأنّ إطلاقه على أشكال التعبير وصور الإبلاغ الأخرى إنّما هو، بالأساس، من باب المجاز.

وذهب كيليطو إلى أن الكتابة قد تكون معياراً كافياً لتحديد النص وتمييزه من اللا نص، مثلما قد لا تكون. فهي تقوم أساساً تمييزاً، في هذا الإطار، في المجموعات التي تمتاز بمحدودية انتشار التدوين فيها، حيث لا يكتب سوى الكلام الذي يعد نصاً في منظار ثقافة ما؛

مثلاً وقع في الثقافة العربية الكلاسيكية قديماً. ولا تطرح الكتابة بوصفها مناط التمييز في المجتمعات التي ينتشر فيها التدوين انتشاراً واسعاً؛ كما في مجتمعاتنا المعاصرة⁴¹.

ولا ينطلق محمد مفتاح من ثنائية (المكتوب ≠ الشفهي) في التفريق بين (النص) و(الخطاب)، بل ثلثيه يقدم اجتهداً آخر في هذه القضية؛ إذ أرتأى أن بينهما عمومياً وخصوصاً، من منطلق أن "الخطاب والتلفظ أعم من القول والنص".⁴² وتوضيح ذلك أن النص "عبارة عن وحدات لغوية طبيعية منضدة متسقة"⁴³، على حين أن الخطاب "عبارة عن وحدات لغوية طبيعية منضدة متسقة منسجمة".⁴⁴ فإذا كان المفهوم معاً يُحيلنا على متوالية جُمليّة متلاحمة المكونات، متضامّة الأجزاء، مترابطة العناصر بواسطة عدة وسائل لغوية؛ كأحرف العطف مثلاً، فإن الخطاب يمتاز -علاوة على متطلبات النص- بخاصية الانسجام، التي يشير مدلولها إلى الصلات والروابط غير المتحققة لفظاً بين تلك الوحدات اللغوية؛ الأمر الذي يستوجب من المتلقي المشاركة في بنائها استناداً إلى ما يتمتع به من قدرات تأويلية وإمكانات معرفية. وتكاد تنحصر أهم مبادئ الانسجام النصي في السياق، والتأويل المحلي، والتشابه، والتغريض. على حين تعدد العمليات الذهنية التي يتأسس عليها؛ من مثل المعرفة الخلفية، والأطر، والمدونات، والسيناريوهات، والخطاطة⁴⁵. ويبدو أن (التشابه والاختلاف) هو أكثر كُتب مفتاح احتضناً لمفهومي (النص) و(الخطاب)، اللذين عدّهما -إلى جانب مفهوم (المتن) - بمثابة "إشكالات... وكلّ إشكال نال حظاً وافراً أو قليلاً من المهتمين بنظرية الأدب، ونظريات القراءة بمختلف تجلياتها: نظريات تحليل الخطاب، ونظريات التلقي، ونظريات العلوم المعرفية وغيرها".⁴⁶ ومن ناحية زمن ظهورها، يرى الناقد نفسه أن النص أقدم من الخطاب وأغرق؛ بحيث رُوّجت له الدراسات القديمة، وعُرف تعريفات عدة تعكس توجهات معرفية ونظرية ومنهجية مختلفة⁴⁷.

ويميّز ثان ديك بين النص والخطاب تمييزاً آخر يتضح من خلال قوله: "إن الخطاب هو عملية الإنتاج الشفوية ونتيجتها الملموسة، أما النص فهو مجموع البنيات الآلية التي تحكم هذا الخطاب. وتعبير آخر، فإن الخطاب ملفوظ (أو تُلْفَظ) ذو طبيعة شفوية لها خصائص نصية... بينما النص هو الشيء المجرد والاقتراضي الناتج عن لغتنا العلمية"⁴⁸. وكُنّا قد وقفنا على تعريفات أخرى للنص تحدّده بأنه ملفوظ، بيد أن كثيرين لم يسلّموا به، بل جعلوه إنتاجاً لاحقاً متطوراً للملفوظ؛ منهم فنسينزو لوكاشيو (V. Lo Cascio) الذي ادّعى أن الملفوظ لا يصير نصّاً إلا عندما تترابط عناصره باعتماد عامل الزمن، بمختلف أصنافه (الزمن النفسي - الزمن الفلكي - الزمن البيولوجي...)، والذي يعد أحد أهم العوامل التي تشكل بنية الكلام المنطقية⁴⁹.

ويختلط النص بمفهوم آخر هو الأثر (أو العمل) الأدبي (L'œuvre littéraire)، بل يتعارضان أحياناً⁵⁰. ويعد بارط من أوائل الداعين إلى ضرورة التفريق بين هذين المفهومين، فعرف الأثر الأدبي بأنه "ذلك الموضوع المنجز الذي يمكن أن يحتلّ فضاء فيزيقياً... على حين أن النص حقلٌ منهجي... كل ما يمكن قوله هو أن في كل أثر يوجد نص أو لا يوجد. العمل تتناوله اليد، والنص تتناوله اللغة".⁵¹ وأفاض الناقد نفسه، في تجلية الفروقات بين النص والأثر الأدبي، في كتابه "درس السيميولوجيا"، فحدّد ذلك في جملة من النقاط كالآتي⁵²:

"1- لا ينبغي أن يعامل النص كموضوع يُعصّض، فحين العبث أن نحاول التمييز المادي بين الآثار المادية والنصوص. كما لا ينبغي، على الخصوص، الذهاب إلى القول بأن الأثر كلاسيكي، أما النص فطلائعي... فقد يحدث أن يكون في الأثر القديم نصوص، مثلاً أن كثيراً من التنتاجات الأدبية المعاصرة ليست بالنصوص... ليس النص تجزئة للأثر، بل إن الأثر هو الذيل الوهمي للنص. وبعبارة أخرى: إن النص لا يعرف نفسه إلا داخل عمل وإنتاج...

2- إن النص لا ينحصر في الأدب (الجيد). إنه لا يدخل ضمن تراث، ولا حتى ضمن مجرد تقسيم للأجناس. ما يحدّده، على العكس من ذلك، هو قدرته على خلخلة التصنيفات القديمة... إذا كان النص يطرح مشاكل التصنيف، فإنه يستلزم على الدوام ما يُطلق عليه صولرس P. Sollers تجربة الحدود. لقد سبق لتيبودي Thibaudet أن تحدّث عن الآثار التي توجد على الحدود (مثال ذلك حياة رانسني) Rancé لشاتوبريان التي تبدو اليوم نصّاً)... النص دوماً بدعة وخروج عن حدود الآراء السائدة.

3- يقترب النص من ذاته ويدركها بالمقارنة مع الدليل (Signe)، أما الأثر فهو ينحصر في مدلول... إن الأثر الأدبي يعمل كدليل عام... أما النص فإنه يكرس، على العكس من ذلك، التراجع اللانهائي للمدلول. النص تمّدي، مجاله هو مجال الدال... إن التوليد الدائم للدال داخل مجال النص لا يتم وفق النمو العضوي أو حسب طريق تأويلي، وإنما وفق حركة تسلسلية للتداخل والتغير. إن المنطق الذي يتحكم في

النص ليس منطقاً تهميماً (يحدد مقصد الأثر وما يريد أن يقوله)، وإنما هو منطق كنايةات... الأثر الأدبي (في أحسن الأحوال) زمري بدرجة وضعية، ورمزيته سرعان ما تتوقف. أما النص فهو أساساً رمزي: الأثر الأدبي الذي نفهم طبيعته الرمزية المطلقة ونذكرها نص... 4- النص تعددي... إنه لا يمكن أن يكون هو ذاته إلا في اختلافه... وبالرغم من ذلك، فهو نسيج من الاقتباسات والإحالات والأصداء؛ أعني: من اللغات الثقافية السابقة أو المعاصرة التي تخترقه بكامله... الأثر لا يرجع الفلسفات الواجدية، والتعدد عندها هو الشر بعينه. مقابل الأثر يمكن للنص أن يرفع شعار الإنسان الذي سكنته الشياطين... النسيج التعددي أو الشيطاني الذي يجعل النص في مقابل الأثر يمكن أن يؤدي إلى إعادة نظر عميقة في القراءة حيث لا سيادة إلا للمونولوج...

5- يُنشر الأثر ضمن تطور سلاحي، فيفترض أن العالم يحدد الأثر، وأن الآثار تتسلسل فيما بينها، وأن المؤلف يمتلك الأثر. يُنظر إلى المؤلف على أنه أبو الأثر ومالكه... أما النص فهو يُقرأ من غير أن يُسند إلى أب. هنا أيضاً تتميز الصورة المجازية للنص عن الصورة المجازية للأثر؛ فهذه توحى بصورة الكائن العضوي الذي ينمو بفضل التكاثر الحيوي، أما الصورة التي يوحي بها النص فهي الشبكة... 6- عادة ما يكون الأثر موضوع استهلاك... أما النص فهو ينقد الأثر من الاستهلاك، وينظر إليه كلعب وعمل وإنتاج وممارسة. وهذا يعني أن النص يتطلب منا أن نحاول قهر (أو على الأقل تقريب) المسافة التي تفصل الكتابة عن القراءة، لا بالزيادة من إسقاط القارئ على الأثر، وإنما بضمتها معاً في نفس الممارسة الدالة.

7- يقودنا هذا نحو مقارنة أخيرة للنص، وهي التي تتعلق باللذة... حقاً إن الأثر الأدبي لا يخلو من متعة (بعض الآثار على الأقل)... بيد أن هذه المتعة، مهما كانت درجتها، حتى ولو تحررت من كل حكم مسبق تظل في جزء منها متعة استهلاك... أما النص فهو مشدود إلى المتعة؛ أعني إلى اللذة التي لا تنفصم...⁵³

ونجد في نظرية النص مفهوماً آخر يرتبط بالنص، هو المعبر عنه بمصطلح (Corpus) الذي يترجمه بعض الدارسين العرب بلفظ (متن)، وآخرون بلفظة (مدونة). والمراد به "عمل أو مجموعة من الأعمال الخاصة بكتاب معين أو بمرحلة تاريخية محددة أو موضوع بعينه"⁵⁴. إن النص والمتن مترادفان في نظر نقاد كثيرين؛ منهم على سبيل التمثيل غريماص وكورتيس اللذان ذهبا إلى أن "المصطلح الأول يُستخدم تارة بمعنى ضيق، وذلك حين تفرض طبيعة الموضوع المختار (عمل كاتب ما، أو مجموعة من الوثائق المعروفة أو الشواهد) حدوداً عليه.

وهذا المعنى يستحيل النص مرادفاً للمدونة (Corpus). ومنهم - عريباً - نعان بوقرة الذي حدّد المدونة بأنها متوالية من الأحداث تصف وضعية ما، وهي تمثل المعطيات التي يخضعها الواصف إلى التحليل، وهي النص الذي يتخيّر الدارس حسب نظرة معينة. تلکم، باختصار، إمامة عجلى بعض جهود الدارسين والنقاد العرب المعاصرين في تحديد النص، وضبط مفهومه، وتبيان الحدود الفارقة بينه وبين مفاهيم أخرى تجاوره دلاليًا، وإثارة جملة من القضايا النقدية المتخضعة له... والبحث بذلك يكمل بحثاً آخر كنت قد نشرته، قبل عامين، بسطت فيه القول عن جهود أحد عمالقة النقد العربي المعاصر؛ وهو الجزائري د. عبد الملك مرتاض، في تعريف النص، وتناول مسأله⁵⁶...

إحالات البحث:

- 1- مجدي وهبة وكامل المهندس "معجم مصطلحات الأدب"، مكتبة لبنان، بيروت، ط 1974، ص 566. ن. التعريف نفسه في "معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب"، مكتبة لبنان، ط 1979، ص 226.
- 2- سعيد علوش، معجم "المصطلحات الأدبية المعاصرة (عرض وتقديم وترجمة)" مطبوعات المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، 1984، ص 213.
- 3- نعان بوقرة، "المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب (دراسة معجمية)"، عالم الكتب الحديث ودار جدارا للكتاب العالمي، عمان، ط 1، 2009، ص 42. وانظر أيضاً ص 141.
- 4- انظر شرح هذه التحديدات جميعها في كتابه "مسألة مفهوم النص"، من منشورات كلية آداب وجدة، سلسلة "الدروس الافتتاحية"، رقم 2، 1997، ص 17-4.
- 5- محمد مفتاح، "تحليل الخطاب الشعري: استراتيجية التناص"، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - بيروت، ط 3، 1992، ص 120.
- 6- بوجراند، النص والخطاب والإجراء، تر: تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط 1991، ص 103-105.
- "التحليل السيميائي: أبعاده وأدواته" (حوار مع محمد مفتاح)، مجلة "دراسات سيميائية أدبية لسانية"، فاس، ع 1، خريف 1987، ص 17.
- 7 نور الدين السدّ، - "الأسلوبية وتحليل الخطاب (دراسة في النقد العربي الحديث)" دار هومة، الجزائر، ط 1997، ص 70.

- 8- الأزهري الزناد، "نسيج النص"، المركز الثقافي العربي، ط.1، 1993، ص12.
- 9- محمد خطابي "لسانيات النص"، المركز الثقافي العربي، ط.2، 2006، ص13.
- 10- كيليطو عبد الفتاح، "الأدب والغربة"، دار الطليعة، بيروت، ط.1، 1983، ص16.
- 11- نقلاً من حسن الأمrani، مقال "تقافتنا المعاصرة بين الكائن والممكن"، مجلة "المشكاة"، وجدة، ع.14، س.4، ربيع 1991، ص6.
- 12- كيليطو، الأدب والغربة، ص17.
- 13- المرجع نفسه، ص18.
- 14- نفسه، ص20.
- 15- Les mots et les choses, M. Foucault, Ed. Gallimard, Paris, 1966, P 307.
- 16- نقلاً من نصر حامد أبي زيد "مفهوم النص"، المركز الثقافي العربي، ط.5، 2000، ص177.
- 17- نور الدين صدوق، "حدود النص الأدبي: دراسة في التنظير والإبداع"، دار الثقافة، البيضاء، سلسلة "الدراسات النقدية"، رقم 2، ط.1، 1984، ص12.
- 18- حاتم الصكر "ترويض النص: دراسة لتحليل النص في النقد المعاصر (إجراءات.. ومنهجيات)"، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط.1998، ص42.
- 19- النقد والحداثة، دار الطليعة، ط.1، 1983، ص18.
- 20- عبد السلام المستدي، "قضية البنيوية: دراسة ونماذج"، دار الجنوب للنشر، تونس، ط.1995، ص ص52-53، بتصرف.
- 21- Poétique, T. Todorov, Ed. Seuil, 1973, P 45.
- 22- رولان بارت "درس السيميولوجيا"، تر: عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، ط.3، 1993، ص62.
- 23- تأذيه "النقد الأدبي في القرن العشرين"، تر: قاسم مقداد، وزارة الثقافة السورية، ط.1، 1993، ص302.
- 24- "أسعد قطان، الهرمينوطيقا الحديثة وفهم النص"، مجلة "الحياة الطليعة"، بيروت، ع.14، س.4، ص118.
- 25- فاضل ثامر، الكتابة الثانية وفتحة المتعة، المركز الثقافي العربي، ط.1، 1998، ص14.
- 26- منذر عياشي، "النص: ممارساته وتحليلاته"، الفكر العربي المعاصر، بيروت، ع.97/96، 1992، ص55.
- 27- نفسه.
- 28- حسين خمري، "نظرية النص: من بنية المعنى إلى سيميائية البالد"، البار العربية العلوم ناشرون، بيروت - منشورات الاختلاف، الجزائر، ط.1، 1997، ص56.
- 29 - Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage, A. J. Greimas et J. Courtés, Hachette, Paris, 1979, P 389.
- 30- محمد عابد الجابري، "الخطاب العربي المعاصر"، دار الطليعة، ط.1985، ص8، بتصرف.
- 31- سعيد يقطين، "تحليل الخطاب الروائي"، المركز الثقافي العربي، ط.1، 1989، ص17.
- 32- نفسه.
- 33- Dictionnaire de linguistique, J. Dubois & Autres, Librairie Larousse, Paris, 1973, P 156.
- 34 - مَبْرُحُهُمْ، في الخطاب، بين الشفوي والمكتوب (بنقشت)، على أساس الاختلاف الملحوظ بين نمطين متباينين من الممارسة اللغوية. (Langue, Discours, Société (pour E. Beneveniste), sous la direction de J. Kristeva, J. C. Milner et N. Ruwet, Ed. du Seuil, Paris, 1975, P 88.)
- 35- فاتح زوان، "مصطلحا "الخطاب" و"النص"" مجلة "كتابات معاصرة"، بيروت، ع.68، مج.17، ربيع 2008، ص50.
- 36- ومَن زعم أن العلاقة بين النص والخطاب قائمة على التقابل، كذلك، نجد جبرار دنيس فارسي (G. D. Farcy) في معجمه النقدي "Lexique de la critique" (P.U.F, 1991, P 40).
- 37- Sémiotique..., P 389.
- 38- نقلاً من "نظرية النص"، ص46.
- 39- دانيال تشاندلر، "معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات"، تر: شاكر عبد الحميد، مطابع المجلس الأعلى للآثار بمصر، ط.2002، ص223.
- 40- عبد الفتاح كيليطو، الأدب والغربة، ص18.
- 41- محمد مفتاح، "بعض خصائص الخطاب"، مجلة "علامات في النقد"، ج.35، مج.9، مارس 2000، ص9.
- 42- نفسه، ص10.

- 43- نفسه. ويبدو أن ثمة خطأ في كلام مفتاح بين تحديده الخطاب هنا، وتحديد النص في ذلك الحوار المخبري معه، والذي أحلنا عليه في موضع سابق من هذا القسم!
- 44- انظر تفصيل هذه المبادئ والعمليات في كتاب خطابي "لسانيات النص"، المركز الثقافي العربي، ط.2، 2006، الفصل الثالث من الباب الأول،
- 45- محمد مفتاح، "النشأته والاختلاف: نحو منهجية شمولية المركز الثقافي العربي، ط.1، 1996، ص33.
- 46- محمد مفتاح، "تحليل الخطاب الشعري"، ص119.
- 47- نقلاً من "نظرية النص"، ص60.
- 48- نقلاً من المرجع نفسه، ص101.
- 49- جابر عصفور، "تعريف بالمصطلحات الأساسية"، عملٌ مُلحَق بكتاب "عصر البنيوية"، تأليف: إدريث كيرزويل، دار آفاق عربية، بغداد، ط 1985، ص291.
- 50- Théorie du texte, R. Barthes, in: ENCYCLOPEDIA UNIVERSALIS, 1980, P 373.
- وهذا التقابل "يذكرنا بالتمييز الذي اقترحه لكان بين "الواقع النفسي" و"الواقع"؛ من حيث إن الأول يُشار إليه، أما الثاني فيُبرهن عليه. وبالمثل فإن الأثر يُرى... أما النص فيُبرهن عليه، ويُتحدَّث عنه وفق بعض القواعد (أو ضد بعض القواعد)". ("درس السيميولوجيا"، م.س، ص60، بتصرف)
- 51- أثرت إثبات نص بارط هنا على طوله الواضح؛ لأهميته الكبيرة في باب التمييز بين النص والأثر الأدبيين، ولتعدد أفكاره وتشعبها.
- 52- درس السيميولوجيا، ص60-66.
- 53- حمري حسين، "نظرية النص"، ص35. ومن العرب من يضع مصطلحي "المتن" و"المدونة" في مقابل اللفظة الأجنبية "Répertoire". ("مفهوم المرجعية وإشكالية تأويل النص الأدبي" لمحمد خرماس، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهرارز فاس، ع.12، 2001، ص63)
- 54- Sémiotique..., P 390.
- 55- المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب، ص134.
- 56- انظر نص البحث كاملاً، وهو بعنوان "جمود عبد الملك مرتاض في تعريف النص وتناول مسأله"، في دورية "دراسات مصطلحية" المحكمة، التي تصدر عن "معهد الدراسات المصطلحية" بفاس، ع.14/13، 2014/2013، من ص 231 إلى ص 274.